أفكار متقاطعة

صيرورة العالم بين ماضٍ وحاضر ومستقبل (1)

التاريخ يبدع وينحرف ويتمايل ويضلّ السبيل

■ جورج كعدي

ساد في الستّينات من القرن الفائت أنّ الماضي معلوم يقيناً، وأنّ الحاضر معلوم كذلك بطبيعة الحال، وأنّ أساس المجتمع الإنسانيّ ثابت، وأنّ المستقبل سوف ينبني على الأسس المتينة عبر تنمية التوجّهات المهيمنة اقتصاداً وعلماً وتكنولوجيا. وظنّ الفكر التكنو - بيروقراطيّ أنّه يستطيع التنبؤ بالآتي. بل خال، في تفاؤل ساذج، أنّ القرن الحادي والعشرين سيقطف الثمار الناضجة لتقدّم الإنسانيّة. إلاّ أنّ مستشرفي المستقبل بنوا مستقبلاً خياليّاً انطلاقاً من حاضر مجرّد.

هذه التبسيطيّة الإشكاليّة تأمّل فيها مفكّرون وفلاسفة كثر، وشكّلت للفيلسوف وعالم الاجتماع الفرنسيّ إدغار موران محور بحث فلسفيّ شائق منحه العنوان السؤال؟ où va le monde، مصوّباً المسار والمنطق الجدليّين، ومقترحاً منهجيّة فكريّة جديدة أكثر تماسكاً وعلميّة وواقعيّة تفضي في النهاية إلى تصوّر متين يعقد صلة بين الماضي والحاضر والمستقبل تفضي إلى استشراف واقعيّ غير مبنيّ على التجريد والخيال. إذ يرى موران أنّه ينبغي للتوصّل إلى تصوّر دقيق للصيرورة التاريخيّة أن نُحلّ تصوّراً مركّباً مكان التصوّر التبسيطيّ السائد الذي يعتقد بأنّ الماضي والحاضر معلومان، وأنّ عوامل التطوّر معلومة، وأن المستقبل يمكن التنبؤ به. في حين أنّ الواقع يفيدنا بأنّ ثمّة دوماً عمليّة تفاعل تبادليّة بين الماضي والحاضر، ولا يساهم الماضي في معرفة الحاضر فحسب، وهذا بديهيّ، بل تساهم تجارب الحاضر في معرفة الماضي وتعمل على تغييره. يُشيّد الماضي انطلاقاً من الحاضر. العلاقة بينهما جدليّة وفي الاتجاهين. ألا تعيد قراءة حدث تاريخيّ جَلَل مثل الثورة الفرنسية (1787 - 1788) وتقويمه تكوين النظرة السابقة إليه والأفكار الثابتة حوله. بلى، يستطيع الحاضر تغيير الماضي، في هذا المعنى، بتعديل الصورة الشائعة والثابتة عنه. مفكّرون ومؤرّخون كثر أعادوا كتابة الماضي ومحطّاته الكبرى: جوريس عن التجربة الاشتراكيّة، ماتييز عن البلشفيّة، سوبول عن الستالينيّة، غيران Guérin عن الفوضويّة، فوريه Furet وريشيه Richet عن تجربة التخلّص من الستالينيّة، إلخ.

نكتشف ثغرة في الماضي تقابلها ثغرة في الحاضر. معرفة الحاضر تستوجب معرفة الماضي التي تستوجب بدورها ضرورة معرفة الحاضر، والوهم الأكبر هو الاعتقاد بأنّنا نملك معرفة عن الحاضر لمجرّد أنّنا موجودون فيه، فالصعوبة الأولى التي تواجه التفكير في المستقبل هي صعوبة التفكير في الحاضر. العماء إزاء الحاضر يمنعنا من رؤية المستقبل. قد لا يكفي التفكير في الحاضر على نحو صحيح لنغدو قادرين على استشراف الآتي. ينطوي عالمنا الراهن على أحوال الآتي بشكل مضمر. بذور مجهريّة سوف تتبلور لكنّها غير مرئيّة الآن بالنسبة إلى رؤيتنا.

يؤكّد موران على عدم خضوع التطوّر للقوانين أو لحتميّة متفوّقة، فهو ليس تطوّراً آلياً خطياً متتابعاً، ولا وجود لعامل دائم الهيمنة يقود التطوّر، أو لكان المستقبل سهل التنبؤ لو كان التطوّر متعلّقاً بعامل مهيمن وبعلّية (من علّة) خطّية. ينبغي، على العكس، الانطلاق من أن الواقع متعدّد البعد ويتضمّن عوامل ديموغرافيّة واقتصاديّة وتقنيّة وسياسيّة وإيديولوجيّة... ويمكن أحدها أو بعضها أن يهيمن في لحظة، إنّما ثمّة في الحالات كلّها دوران للهيمنة. لا يسير الديالكتيك على القدمين ولا على الرأس، بل يدور، فهو قبل كل شيء حركة تأثير وتأثّر، أي حلقة في حركة أزليّة.

حركة الصيرورة مركّبة على نحو هائل. التاريخ يبدع، ينحرف، يتمايل، يبدّل السكّة ويضلّ السبيل. والتطوّر انسياق، وانحراف، وخلق، واضطراب، وأزمات... لم يتحقّق نموّ الصناعة على أرض الحضارة السابقة، بل عبر قلب أوضاع المجتمع التقليديّ على نحو كامل، وعبر نقل جموع سكان الأرياف إلى ضواحي المدن، محطّماً الروابط وأشكال التضامن لحساب علاقة ماليّة ومهدّماً ثقافات. تحدث من دون انقطاع انحرافات وتتقلّب مسارات. تنقلب الغايات إلى وسائل، والوسائل إلى غايات. ينتمي المستقبل بالأحرى إلى اللامحتمل لا إلى المحتمل، خاصة إذا استمرّ التطوّر على هذا النحو من التسارع والتعدّد الذي يعرفه عصرنا. مَنْ كان يستطيع، قبل أقلّ من خمسة عشر ألف سنة، أن يتوقّع ظهور الدولة والمدينة والإمبراطوريّة من خلال تأمّل شتات إنسانيّ مكوّن من مجموعات صغيرة من القنّاصين والرحّل من دون دولة ومن دون مدينة ومن دون زراعة؟

يبدو أن أزمة الحضارة في ما يخصّ المجتمعات الغربيّة، وأزمة الثقافة، وأزمة القيم، وأزمة العائلة، وأزمة الدولة، وأزمة الحياة الحضريّة، وأزمة الحياة القرويّة، إلخ، هي جوانب متعدّدة لكيان المجتمعات الذي يبدو كيانا مأزوماً. مجتمعات تهدّدها الأزمة، بيد أنها تتغذّى منها. كلّ من الشرق والغرب تنخره عوامل مأزومة، والعالم الثالث الذي ظهر إلى الوجود بفعل حركة الاستقلال يزداد تخلّفه عمقاً. فنقص عدد وفيات الأطفال وتفكّك اقتصاديّات المجتمعات التقليديّة وتدهور التوازنات البيئيّة والثقافيّة والسوسيولوجيّة الذي أنتجته التقنية الجاهلة، وزحف بيوت الصفيح على المدن... ذلك كلّه ولّد قحطاً جديداً ومجاعات إضافيّة، إذ يقدّر عدد الوفيّات بسبب سوء التغذية سنويّاً بثلاثين مليون وفاة يشكل منهم الأطفال ما دون الخامسة عشرة نسبة 15 إلى 18 في المئة. ولو استمرّ الوضع بهذه الوتيرة، مع التزايد الديموغرافيّ، لوصلنا قريباً إلى مليار وفاة سنويّاً. فالعالم الثالث يتأرجح بين الحياة والموت، وثمانون في المئة من البشر يعيشون صراعاً لأجل البقاء... (يتبع).

لوحات باسل إبراهيم... التضادّ اللونيّ في إطار تجريديّ

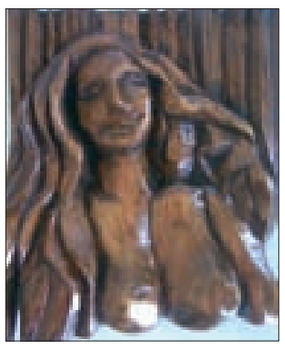

كتبت بشرى سليمان من اللاذقية (سانا): يعالج الفنان التشكيليّ باسل ابراهيم المعروف بـ"ايماروش" في لوحاته حالات إنسانية يستلهمها من محيطه، مع التركيز على الأسلوب الفني والتقنيات الخاصة به التي منحته بصمة خاصة في المشهد المحلي، علماً أنه يؤمن بالمدرسة الواقعية بكونها الأبجدية الأولى في الفن، منتقلاً منها إلى التجريدية التي تنعكس في أعماله التصويرية والنحتية على حد سواء.

حول بداياته الفنية يقول: «منذ الطفولة كانت لديّ ميول فنية، وكان لأخوالي ووالدي اهتمام فني واضح فدعموني معنوياً ونفسياً وقدموا إليّ تسهيلات كثيرة. وكبرت هذه الميول في مراحل الدراسة وتلقيت التشجيع والتهنئة من أساتذتي الذين أعجبوا بموهبتي، ثم تبلورت هذه الموهبة من خلال دراستي الأكاديمية في معهد الأعمال اليدوية حيث تخرجت عام 1995 وكنت الأول على دفعتي في جميع المواد العملية من خزف ونحت وحدادة ورسم زيتي ونجارة وزخرفة وغيرها. بعد تخرجي من المعهد تبلورت موهبتي الذاتيّة في مرسمي الخاص»، مشيراً إلى أنه تمسك منذ البداية بالمدرسة الواقعية فهي الأبجدية الأولى في الفن ولا يمكن أن تشكل الشخصية الفنية من دون العمل الدؤوب والتفاني. ورغم ذلك، تطور أسلوبه لاحقاً على نحو تدريجي فمال إلى التجريدي بأشكاله المختلفة، من التجريدي البحت إلى التجريدي التعبيري».

يضيف موضحاً: «اللوحة هي عامة تجسيد لحالة حلم أو صورة متخيلة أو حتى معالجة لحادثة تاريخية تتعلق بثقافة أو انعكاس للحواداث، فالمحيط يحفز ويثير مخيلة الفنان وينعكس على ألوانه بالدرجة الأولى. أحبّ مزج اللون والابتعاد عن الألوان الأساسية التي تفتقد القوة، مع التركيز على التضاد اللوني في اللوحة نفسها وهذه صفة عامة في جميع لوحاتي. إني من الفنانين الذين يعشقون الطبيعة. فكثيراً ما أحب التجول في الغابات والأرياف والأراضي العذراء ذات العفوية المطلقة، فضلاً عن التركيز بشكل أساسي على الإنسان عامة والمرأة خاصة بشكلها المختزل التعبيري أو حتى التجريدي، حيث إلغاء الجزئيات البسيطة والإبقاء على التشريح للإيحاء والاختزال. مع الاهتمام بتصوير الطبيعة الساحلية من خلال الضياء والألوان الجميلة للريف الساحلي وزرقة البحر ولون التربة والجبل».

عن أعماله النحتية يقول: «في المادة النحتية أميل إلى التجسيد وإلى وضع كتلة في الفراغ وأجد متعة كبيرة بتناغم الفضاء والأوكسجين مع جزئيات العمل النحتي، إذ أفضل تفريغ الكتلة النحتية في أكثر من موضع، وأعمالي النحتية جميعها من الخشب، مع بعض الإضافات الضرورية مثل المعدن أو البراغي لتخدم الفكرة والشكل كمعنى وليس كحالة جمالية أو تزيينية».

يؤكد إبراهيم أن على المبدع أن يقاتل ليلاً ونهاراً باللوحة والكلمة وبكل عمل جميل لتغيير النفوس نحو الأفضل والتخلص من كل شر.

باسل ابراهيم من مواليد عام 1974، له معرضان منفردان، الأول أقامه عام 2012 في «غاليري عامر علي» وضم أكثر من 30 عملاً فنياً بين لوحات زيتية وأعمال نحتية خشبية، أما المعرض الثاني فكان في «سي آرت غاليري» عام 2014، إلى عدد من المعارض المشتركة في دمشق وبيروت.

الشاعرة لبنى مرتضى تروي مساراً طويلاً مع الشعر الحديث

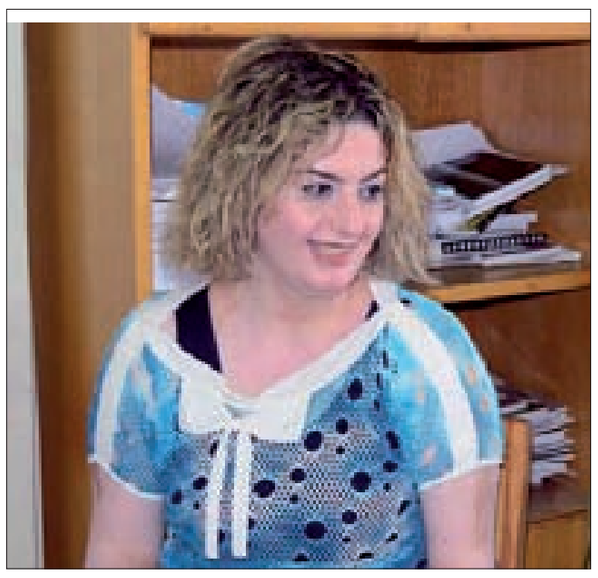

كتب محمد الخضر وسامر الشغري من دمشق (سانا): عبر مسيرتها الشعرية على امتداد اثني عشر عاماً، أصدرت الشاعرة لبنى مرتضى مجموعتين شعريتين وتميزت بكتابة القصيدة الحديثة تبعاً للعاطفة الداخلية والإحساس الخاص. إن دافعها الأول للكتابة تأثرها بواقعها بما يحمل من حوادث وأشخاص، محرّكاً فيها مشاعر تدفعها إلى الكتابة كي تنقل عالمها الداخلي إلى سطح الورقة. وإذ تفعل تغمرها سعادة لتمكّنها من صوغ المؤثرات التي عاشتها في فن وإبداع أكثر رقياً وأشدّ تأثيراً ولكنها تترك للمتلقي تفسير الغاية التي تنشدها من الكتابة، فالنص يحمل دوماً دلالات تملك أكثر من معنى.

حول الدلالات التي يحمله شعرها تضيف مرتضى: «كثير من القصائد التي أكتبها تحمل في متناقضات الدفء والرقة والتمرد، ويتخاطفها الشوق وأجنحة الوحشة الحالمة والغربة الداخلية، بحثاً عن المزيد من الصور الغنائية التي يمتزج فيها صدق الواقع والبساطة».

تحاول الشاعرة أن تضمّن نصوصها الرؤى والأطياف والصور المتآلفة التي تبدو جملة واحدة أو مقطعاً وجدانياً متجانساً، رغم أن حالات الكتابة تختلف لديها بين الشدة والقوة والسهولة والرقة.

عن تأثرها بالشعراء العرب تؤكد: «قرأت كثيراً من الشعر العربي بأنواعه وأجناسه المختلفة، ومررت بمختلف الصور والمعاني، واطلعت على تجارب ذاتية وروحية، إلا أنني لا أرغب في ذكر أحد فعلى الشاعر أن يتجاوز في النهاية أساتذته ضمن ما يقدمه من ابتكارات»، وبالنسبة إلى ما يقدمه الشعراء السوريون الشباب على الساحة الثقافية حالياً توضح: «لا بد للشعراء الشباب من أن يعملوا على تكوين حالة شعرية قادرة على إثبات الذات والتطور بدلاً من أن يدفعوا بأي كلام إلى المنابر تحت تسمية شعر، يلحق أذى بالساحة الثقافية وبالشاعر نفسه ومستقبل الشعر»، وترى أن مثل هذه الحالات أصبحت شائعة وتغزو العديد من المنابر الثقافية، إضافة إلى بعض الصحف التي تستقطب كثراً من هؤلاء على حساب الذين يملكون مواهب حقيقية يمكن أن تكون دعماً للوطن وثقافته في حال نالت حقها وتمكنت من أداء دورها. وتعتقد أن الشعر العربي المعاصر بات يعاني منافسة الشعر الغربي إذ لا يعمل على تطوير مكوّناته بسبب تراجع الحالة الثقافية التي تعتبر أهم أساس في الشعر. ومع ذلك تؤكد أن الشعر الغربي لم يتمكن من تجاوز المنظومة الشعرية الموجودة في تاريخنا العربي.

أما حول الشعر الذي يكتب في الأزمة تعتبر مرتضى «أن كثيراً من الشعر كتب حول ما يدور في بلادنا، سواء من الشعراء الحقيقيين أو من الأدعياء، إلا أنني لا أرى أن ما كتب استوفى شروطه وأدى واجبه».

تعمل الشاعرة مرتضى على تكثيف النص إلى الحد الذي يمكنها من عدم تكرار نفسها، حتى لو كان التطور عبر حركة بطيئة تستوجب ثقافة متراكمة، فكتابة الشعر مسؤولية اجتماعية وإنسانية وثقافية تمتد من الراهن إلى المستقبل. وتتمنى على جيل الشباب أن يشتغل على نصوصه بهدوء ولا يستعجل التدافع نحو الساحة الثقافية، ولا سيما الشعراء الشبّان الذين يكتبون النص النثري، فهذا الجنس الأدبي يحتاج إلى مفردات وأدوات تجعله أجمل وأكثر إبداعاً مما سبقه لئلا يحكم عليه بالفشل.

شاكت الشاعرة لبنى مرتضى في العديد من الأنشطة الثقافية، ولها كتابان في الشعر الحديث، الأول عنوانه «القمر الطليق" والثاني «عرق الذهب"، كما تنشر كتاباتها في الدوريات السورية والعربية، إضافة إلى الوسائل الإعلامية التلفزيونية.

توضيح

جاءنا من رئيس لجنة تاريخ الحزب السوري القومي الإجتماعي، لبيب ناصيف، توضيح حول النبذة التي نشرت في عدد «البناء» أمس عن الطبيب والموسيقيّ القوميّ الراحل مخّول قاصوف، أنها كتبت وعمّمت في تاريخ 25/3/2010 وليست مرتبطة بخبر الرحيل.

فضاء حرّ

طواويس «داعش» بيننا

■ جورج كرم*

كلمة «داعش» اليوم على كل شفة ولسان. وصلت صورة إرهابهم إلينا قبل أن يصلنا إرهابهم في هذا البلد المهزلة. وآلة «داعش» الإعلامية كانت ولم تزل أدوات الأعلام الغربي وأذياله في بلادنا، مثل محطة «الحرب على إسرائيل» ومحطة بيارو «السئيل» التي روّجت لتلك المنظمات الإرهابية من خلال تشويه صورة الدولة في الشام وجيشها والنظام وأتت بعملاء وخونة وجعلت منهم رجالاً، مثل معاذ الخطيب وتتيتو وهيتو والعاجز من آل طلاس وشقيقه المنحرف، وهذا الشذوذ كله لمتعة الجميع على موقع «يوتيوب» والأخ الثالث «الوسيم» الذي التجأ إلى السيجار ليحمي رجولته في البوستر الدعائي الذي روّجته وسائل الإعلام الغربية، بالإضافة إلى «صحيفة مقاومة» على أنه رجل ذو شفافية في التعامل، علماً أنه ربيب النظام الحالي في الشام، الذي عاد فبصقه خارج البلاد، على ما أشار الرئيس الأسد قائلاً في إحدى مقابلاته التلفزيونية ما معناه إنّ خروج المنشقين وانضمامهم إلى الثورة المزعومة المشؤومة ما هو إلاّ خير على الأمة التي تتخلّص من أوساخها البشرية بهذه الطريقة. وعلى مألوفه كان الرئيس الأسد حضارياً راقياً في مقاربته وليس «داعشياً» بذيئاً مثلما عوّدنا أولئك «الدواعش» وإعلامهم في خطابهم وممارساتهم.

قصة نشوء «داعش» ونموّها وتطورها تشبه كثيراً قصة الطواويس في مدينة ميامي، والطاووس طير رائع الجمال، أما «الداعشيّون» ولحاهم البرتقالية، والحقد الذي يعتري وجوههم وعبسة الموت على شفاههم تجعلهم من أقبح المخلوقات التي تدبّ على الأرض، حتى لو شملنا فصيلة القرود والأفاعي في مقاربتنا هذه. واليوم تعاني مدينة ميامي في ولاية فلوريدا الأميركية من غزو الطواويس البرية، والطاووس ذو ريش خلاّب المنظر حين يفرشه مزهوّاً به، وهو ليس طيراً من طيور الجنوب الأميركيّ الأصلية، وينتشر عادة في الهند. لكن أحد مربّي الحيوانات الأليفة قرر إطلاق زوج طواويس في شوارع المدينة مطلع الثمانينات لغاية في نفس يعقوب، فتكاثر هذا الزوج وأضحت مستعمرة الطواويس هناك تضم المئات منهم، تدور في الشوارع وتدخل حدائق المنازل لقضاء حاجتها ملوّثة برك السباحة وناشرة الأمراض الجرثومية بين السكان، خاصة الأطفال الذين يلعبون في التراب أحياناً. و«داعش» أيضاً بدأت بحفنة أو أكثر من خرّيجي «مدارس» باكستان الدينية المتطرّفة أو ما شابه، استوردتهم إلى الشام الدول الراعية للإرهاب مثل السعودية وقطر وتركيا، وأشار إليهم الإعلام الغربي بتعبير «فريدوم فايترز» أو «مناضلون لأجل الحرية» وسوّقهم في الشارع الغربي المحلي كمقاتلين شرفاء، وما لبث هؤلاء «الداعشيون»، كتسمية عامة في هذه الحال، أن تكاثروا و«تزاوجوا وأنجبوا» مستغلين بعض فقراء أرياف الدول الإسلامية الذين أغراهم المال السعودي والفندق التركي والطعام و«مجاهدات» النكاح، وأضحوا الآن خطراً على الجميع، حتى على مشغّليهم، فالوباء حين ينتشر يغزو الجميع ويضرّ بالجميع ولا يستطيع من نشره الاحتماء منه.

لنعد بالذاكرة إلى بداية حوادث المؤامرة في الشام وكيف كانت الحدود مفتوحة على نحو غير شرعي بين الكيانين الجارين في الشمال وعرسال لتصدير السلاح والرجال والمال، وكيف كانت طرابلس شبه إمارة سلفية غير معلنة ينبح فيها نبّاحو الفتنة، وكيف خرج الإرهابي المولوي من السجن بضغط من «طواويس» أو بالأحرى حيتان سياسية في لبنان، في سيارة أحد تلك الحيتان، وكيف طالب المتظاهرون المغفلون باسترجاع جثث قتلى كمين تل كلخ من الإرهابيين، وكيف تدخلت الدولة بأجهزتها للوساطة لاسترجاع جثث هؤلاء الإرهابيين. وما يثير الذهول أكثر فأكثر اليوم، والبلاد متنبهة إلى الخطر «الداعشي» أكثر من ذي قبل، تصريح أحد نواب المقاومة حول أن عملية ذبح جنود الجيش اللبناني أتت بأمر من خلية «داعش» في سجن رومية والحكومة عاجزة عن الحسم في سجن رومية بسبب معارضة «طواويس داعش» في الحكومة. و«طواويس داعش» ليسوا من طائفة واحدة، فمن ينسى صورة فارس سعيد وإيلي ماروني وسمير جعجع مجتمعين برئيس بلدية عرسال ومحاولين تخفيف وطأة تصريح وزير الدفاع اللبناني فايز غصن آنذاك بأن «داعش» باتت تشكل خطراً إرهابياً علينا. قد يكون الحذر من دخول «داعش» إلينا عبر حدود سايكس بيكو مبرراً بالطبع، فالأعداد المسلحة الكبيرة منهم متوافرة في المقلب الآخر، لكن من خلق «داعش» وحرّض «داعش» ورعى «داعش» وسهر على نموّها وتكاثرها يعيش بيننا في الحكومة والزعامة السياسية وبعض السلطات الدينية. لن يزول خطر «داعش» وأخواتها قبل كمّ أفواه المحرّضين في لبنان وتجميد أرصدتهم ومحاكمتهم بالخيانة العظمى والتحريض على الفتنة، ويقودهم «طاووس» أتى قبل أسبوعين ونيف إلى البلاد مهزوماً و«ذنبه مبتور» بعدما هدّد وتوعّد إبان سنوات الفتنة والمؤامرة الحالية على الشام بتغيير النظام حيناً وبالعودة من مطار دمشق «السلفي» أحياناً، وإذا به طاووس بلا حلّة وطول بلا غلة، يعود مطأطأ الرأس، حاملاً ملياراً لينقذ به ابن بندر بن سلطان المعتقل، على ما أشيع على شبكات التواصل الاجتماعي، وسواء صحّ خبر ابن بندر أو لم يصحّ، يبقى صاحب المليار المستعار طاووساً هزيلاً أمام «الطاووس» الآخر من موظفي آل سعود الذي تمنطق «سلاسة مليراط» سعودية ونادى بحياة المملكة حفاظاً على كرسيه قبل أن يترك سدة الرئاسة.

لقب «الطاووس» يلائم بعض زعماء «لبنان أولاً» وبدلاتهم المستوردة وأطنان «جِلّ» الشعر الذي يضعونه لإخفاء «البوني تيل» البوهيمي الذي يطلق أسره من تحت قشرة «الجِلّ» فقط في حانات باريس، ناهيك عن تبييض الأسنان وزرع الشعر في بعض الأحيان. لكن «داعش» يليق بها تشبيه آخر هو ثعبان بورما الذي أتي به أليفاً إلى ولاية فلوريدا أيضاً وبات الآن وباء عملاقاً يأكل الماشية والحيوانات البرية. بيد أن المدينة، وعلى عكس سياستها حيال الطاووس الذي تمنع مكافحته، افتتحت موسم صيد هذا الثعبان في أنحاء الولاية كلها مع جوائز قيّمة لمن يقتل الثعبان الأكبر حجماً. وليحذر جبناء «داعش» الذين يعرضون بطولاتهم على شاشات الإنترنت في «مواجهة» جندي أسير مقيّد أو جثة هامدة يمثّلون فيها وبينهم الذبّاح الميقاتي، إنّ موسم صيدهم قد بدأ في قرانا ومدننا وليس من «طاووس» ليشفع بهم ولو كان أمير «داعش» في بيت الوسط عينه.

*كاتب سوري من جبل لبنان

آلهة الحضارة الكنعانيّة كثيرة ومتعدّدة الرمز

ثقافة سوريّة عميقة الجذور ورائدة في العالم

■ رانيا مشوّح

السوريون أصحاب حضارات هي الأكبر والأولى في العالم. وإحدى أهم الصور التي أثرت في هذه الحضارات تنوّع الآلهة وتعدّدها في تلك العصور، إذ كان لكل آلهة دور سخّره السوريون لبناء حضاراتهم على نحو فاق حد عبادة تلك الآلهة.

تعدّدت الآلهة ووظائفها لدى السوريّين القدامى، وهذان التعدد والتنوع في عالم الآلهة يدلان على أن المجتمع السوري ذو ثقافة عميقة الجذور ،فخلال الألفين الثاني والثالث قبل الميلاد، وتلبية لرغبات أبناء المجتمعات المتعبدة للآلهة في سورية القديمة، ولعمق أهميتها بحسب اعتقادهم في حماية الزراعة والصناعة والتجارة وأسفار البحار، شيّدوا لها المعابد وقدموا إليها النذور والأضاحي لدرء أي خطر قد يعوق أي مجال من مجالات الحياة آنذاك، عطفاً على دورها في تطور الحياة الدينية والاجتماعية والسياسية، فاعتمدت الديانة الكنعانية على عبادة قوى النمو والتكاثر، وكانوا يعتقدون أن الآلهة تسيطر على قوى الطبيعة بحسب الألواح والنصوص الآموية الكنعانية المكتشفة في ماري وايبلا وإيمار ومملكة أوغاريت، فقدمت معلومات عن الديانات الكنعانية ومجمع الأرباب الكنعاني. ومن الآلهة ذات التأثير الأكبر في الحضارة الكنعانية، آيل كبير الآلهة، وشمش إله الشمس، وعليان بعل إله الحياة، والإلهة العظيمة عشتروت وغيرها.

دلّت الوثائق المكتشفة على أن إيل كان الإله الأعظم للشعوب الكنعانية وجيرانهم الآراميين، فرضته طبيعة البيئة في الأرض السورية، خاصة في المناطق التي اعتمدت على مياه الامطار في زراعتها.

عبد سكان أوغاريت نعمة المطر التي تنتج المحاصيل وألهوها في أسطورة بعل، فهو الشخصية الأساسية والمركزية التي تدور حولها حوادث القصائد الميثولوجيا الأوغاريتية، نظراً إلى دوره المهمّ والحيوي باعتباره إله المياه والعواصف والصواعق وشفيع البحارة، ولذلك أهمية كبيرة لدى كنعانيي السواحل السورية، لافتاً إلى أن موطنه الأصلي كان عند الحدود الشمالية لمملكة أوغاريت على قمة جبل القرع . أما عشتروت فهي إلهة الخير والبركة والخصب، وإلهة التدمير في المعارك والنزال، عرفت بشخصيتها الحربية في أسفار العهد القديم وتمثل الحب الصريح ومن أبرز رموزها العري فهي تظهر عارية في صورها ونقوشها، وكان الحصان من رموزها المهمة لما يمثله من قوة وبطش، ويدل ذلك على أصولها الآسيوية، كما ظهرت برموز مصرية مثل التاج المصري المضاف إليه قرنان جانبيان، وكانت إلهة الخصب لدى الفينيقيين والمعبود الوحيد للشعوب السامية، ولدى السومريين راعية الحرب والحب في آن واحد.

ساهمت تلك الآلهة، بحسب اعتقاد السوريين القدامى، في بناء حضارة من أعظم الحضارات التي عرفتها الإنسانية والتي تعتبر ثروة حظيت بها سورية دون سواها، إذ ساهمت هذه الثروة في تكوين إرث لا تزال جذوره الضاربة في عمق الأرض تُنتج حضارات للأجيال المقبلة.

إذ وجد له نصب في أوغاريت من الحجر الكلسي في موسم حفريات 1937 وهو جالس على عرش غني بالزينة، وفق ما جسدته الأعمال الفنية المكتشفة والمنحوتات الحجرية والتماثيل المعدنية على شكل شيخ حكيم جالس بوقار يهب زوّاره الرحمة والحكمة.

الإله بعل ابن آيل هو ثاني الآلهة في الثالوث الأعظم وجوهر العبادة الكنعانية. لقّب في النصوص الأوغاريتية بألقاب عديدة، منها ألين وتعني العظمة والقوة، وراكب السحاب، والعلي أي المرتفع، وعندما يختفي يحل الجفاف، وعندما يظهر تفيض الانهار عسلاً من جديد. ونظراً إلى أهمية بعل في المجتمع السوري القديم عامة وفي أوغاريت خاصة، تناولته المؤلفات الأدبية التي عثر عليها في مكتبة الكاهن الأكبر وتحدثت عن معاركه ضد الإله يم والإله موت. والأهمية الكبيرة لهذا الإله تعود إلى ما